

التراث والثورة . . .

من الطوائف العراقية أن بعضهم كان يعرف نفسه قائلًا : ثلاثة شين ، يقصد أنه شروق^(١) شيعي شيوعي . .

ومعظم شيوعي العراق من الشيعة ، اتخذوا اللون الأحمر تعبيراً عن السخط وزيادة الانتقام من الحاكمين (الشئين) ، كما أن اللون الأحمر يكسبهم تأييد المسكر الاشتراكي مادياً وسياسياً .

ومن المعروف أن (الحسينيات)^(٢) في العراق تؤدي دور دولة داخل الدولة ، من الإشراف على التعليم والتوعية والرعاية الاجتماعية ، ومهام أخرى .

وقد تصطبغ دور العبارة في بلاد أخرى بهذه الصبغة ، لكن الذي يلفت النظر أن كثيراً من حملة الأعلام صاروا يروجون للشيوعية ، تحت شعار السخط الثوري ، والمنهجية العلمية الاشتراكية ، ليس عن إيمان بحق الكادحين من العمال والفلاحين ، وليس عن رغبة في تحرير البلاد من المظالم والآفات الاجتماعية والسياسية ، وليس عن اقتناع بأن إنجيل ماركس هو خير المذاهب والتشريعات التي ظفر بها الجنس البشري ، سبيلاً إلى الانعتاق من الغيبات والأساطير المقدسة التي تغل الفكر والإرادة ، وتزيف الطموحات الإنسانية المثلثة في الحق والخير والجمال والحرية والمساواة . . ليس من أجل أن يصنع الإنسان قدره دون تسلط وهمي ،

(١) الشروقيون هم سكان جنوب شرق العراق في العمارة والناصرية وكربلاء والبصرة

(٢) الحسينية بمثابة المسجد عند السنين ، لكنه مسجد يؤدي وظائف اجتماعية وسياسية .

وأن تتحرر إرادته في تقرير مصيره ، بل لأن هذا الطريق هو (موضة) العصر الذي يكسب الشهرة ، ويعجل بالانتشار .

إن حملة الأقلام الذين يروجون للشيوعية في العالم يسهل عليهم الوصول إلى مساقط الضوء ، لأن التنظيم الحزبي في أي من بلاد العالم يسعى جاهداً من أجل السيطرة على وسائل الإعلام وتدور النشر ، تماماً كما يفعل التنظيم الصهيوني ، وإن كان هذا التنظيم الأخير أكثر حرصاً على أجهزة المال والاقتصاد والسياسة .

وهذا يفسر الإلحاح المستمر على أقلام بعينها ، والإهمال المتعمد ، وإرادة قتل المواهب الأخرى التي ترفض هذا الاتجاه ، أو لم تعرف الطريق إليه .

ولعل تعبير (الشَّللية) في بلادنا يحمل في طياته بعض هذه الملامح ، تأسيًا بهذا الاتجاه الذي عشن وأفرح أجيالا في مواطن مختلفة ، أو انعكاساً لما يدور في الساحة ، حتى لا يفقد (الآخرون) مواطىء أقدامهم .

* * *

لعل هذه المقدمة تمهد لمرض كتاب (التراث والثورة)^(١) لغالى شكري ، وإن كانت هذه السطور القليلة لا تملك إلا الإشارة الموجزة ، لكنها تعرف باتجاه يتحرك بيننا ، ويحد طريقه على رءوس الأشهاد .

والأستاذ غالى شكري من الدارسين المؤهلين - في إخلاص شديد - لحمل الأمانة التي حملها شبلي شميل ، وفرح أنطون ، وسلامه موسى ، ولويس عوض ، وهي أمانة التنوير والتطوير ، ونخلع أكفان التراث عن هذا الشعب العربي العريق . وعراقه هذا الشعب العربي تمتد إلى ما وراء (الحركة) الإسلامية ، عبر آلاف السنين ، حيث الحضارة الفرعونية والفينيقية والسومرية والبابلية .

(١) دار النظيمة - بيروت - سنة ١٩٧٣

(إن تراثنا أغنى من أن يحُدَّ بمرحلة حضارية واحدة ، فن بابل وآشور ، ومن القراعنة والبابليين والفينيقيين وغيرهم من بُناة الحضارة القديمة ، ومن اليهودية والمسيحية والإسلام ، وغير هذه الديانات من الرسائل الروحية والاجتماعية والفكرية الكبرى . ينحدر إلينا تراث ضخم ، لم يلق للأسف ما هو جدير به) ص ١٩ .

ولاشك في أن سعة دائرة التراث تزيد في ثراء الأمة العربية ، لأنها تعدد الروافد وتنوعها ، وتوسع النبايع وتعمقها .

والانفتاح على العالم الأكبر - وبخاصة في المجال الأدبي - يحمر الفكر العربي من قيود كثيرة ، فلا يربطه بدين ، ولا لغة ولا وطن ، لأن الإنسانية تراثه ، والعالمية مجاله ، والثورة مرامه .

وفي سبيل (تأسيس منهج يصل بين التراث والثورة) ينبغي أن نعلم :
أولاً : (أنه لا سبيل لثورة ثقافية دون أن تشمل قضية « التراث » ، بإعادة نظر جذرية تتناول كافة « المحرمات » التي عانى الفكر العربي من تجاهلها أمداً طويلاً) . ص ١٣ .

ثانياً : (أن الأصالة هي الواقع ، بكل ما يشتمل عليه من عناصر ، ومن بينها « التراث » ، والمعاصرة هي استخدام المنهج العلمي في التفكير) .
(فلو اعتبرنا الأصالة هي الواقع بكل شموله وعناصره لرفضنا من التراث الشيء الكثير مما يعوق حركة الواقع وتقدمه ، وتصيح أصالتنا هي ذلك الرفض الواعي للوجه السلبي في التراث) . ص ١٤/١٥ .

ثالثاً : (أن العودة إلى التراث كالاتمء الحضارى للغرب ، كانا مجرد رد فعل مذعور أمام الرياح القادمة من وراء البحار) . ص ١٦ .

ولهذا كان ضعف قدرة دعاة العودة إلى التراث ، ودعاة الانتماء الحضارى للغرب ، على تبيين مواقفهم ، واستبصار أهدافهم .

(إن المصريين الذين كانوا يملحون مثلاً بمصر « فرعونية » ، والسوريين واللبانيين الذين كانوا يملحون بالحضارة « الفينيقية » ، والعراقيين الذين كانوا يملحون ببابل الجديدة - لم تكن لديهم جميعاً إجابة واضحة عن هذا السؤال : ما هى الملامح « الواقعية » لمصر الفرعونية ، أو فينيقيا ، أو سومر التي تريدون بعثها ؟) .

(أما دعاة الفكرة الإسلامية المتطرفة فهم وحدهم الذين امتلكوا وتصوروا واضح المعالم لدولة الإسلام التي يريدونها ، لأن القرآن في ذاته « تشريع » متكامل السمات للوجود الاجتماعى والسياسى ، وأصحاب هذه الدولة ، الآن ، هم الكيية المتقدمة للرجعية العربية ، على جبهة التراث) . ص ١٠ .

وأجماً : (كانت دائرة الفكر والأدب المشغولة بالتراث دائرة ضيقة من خاصة المثقفين ، أما الآن ، فبرامج التعليم من الطفولة حتى الجامعة ، وبرامج الإذاعة والتلفزيون التي تخاطب ملايين الأميين ، والصحافة ودور النشر التي يسيل لعابها أمام الريح السريع ، وتشريعات المجالس النيابية - هذه كلها تنقل القضية من الدائرة الضيقة إلى أوسع الدوائر إطلاقاً ، دائرة الشعب بمختلف طبقاته وطوائفه ومذاهبه واتجاهاته السياسية والاجتماعية والدينية ، وهو الشعب الذى يجد نفسه الآن مطوقاً بقواعد وقيم منحدره منذ آلاف السنين ، من ناحية ، وتحديات الحياة فى الثلث الأخير من القرن العشرين ، من ناحية أخرى ، ولقد كان شعبنا يعانى مشقة هذا التناقض معاناة حرة ، إن جاز هذا التعبير ، ولكنه الآن - وهو يرى القيم القديمة تأخذ طريقها إلى الدساتير والقوانين - فإن التناقض سيكون حقاً . لا مجازاً ، بين الحياة والموت ، لا بين القديم والجديد) . ص ٩/٨ .

هكذا يعرض الكاتب قضية التراث ، من خلال خوفه على المجتمع العربى ، أن

يؤدى إلى موته نشر (القيم القديمة) ، التى هى التشريع الإسلامى ، الذى يطالب بالأخذ به نواب الشعب ، باعتبار أن الدولة دينها الإسلام ، لأن الغالبية العظمى من الشعب مسلمون ، ولأن الدور التاريخى لهذه الدولة ، طوال أكثر من ألف عام ، كان تحت راية الإسلام .

وجرائم (القيم القديمة) التى تعمل على نشرها أجهزة الإعلام والنشر والتعليم والمجالس النيابية - تجلى خطورتها فى أن (القرآن فى ذاته تشريع متكامل السمات للوجود الاجتماعى والسياسى) ، ولهذا وجب الحذر فى مواجهة هذه الجرائم القائلة ، فنعمل على عزها ، قبل أن نستخدم المصل الواقى .

ولهذا ينبغى إدراك أن (العودة إلى الإسلام ، وليس الإسلام نفسه ، هو « وجهة النظر » الجديرة بالمواجهة ، فى معركة التراث ، بين الثورة والثورة المضادة) . ص ١٠ .

وحتى لا نثير العواصف ، من حيث ندرى ولا ندرى ، ينبغى أن نتبين :
١ - أن (الخطأ القادح الذى تورط فيه الفكر العربى هو أنه نظر إلى تراثنا نظرة جزئية ، لأنها حددت « مولد » تراثنا بالفتوحات العربية ، وأصبح « الإسلام » وحده هو كل تراثنا) . ص ١٨ .

٢ - أن (الحضارة فى جوهرها « إنسانية » ، لها دورات جدلية ، تعتمد الأخذ والعطاء ، ونحن حين نأخذ من الحضارة الحديثة « لا نستوردها » ولا نطلب من الغرب أن يسدّد ديتنا ، لأن الحضارة حضارتنا كما هى حضارتهم ، بلا زيادة أو نقصان ، والامتناع عن « الأخذ » هو تنكّر لتراثنا ، الذى يشكل عنصراً تاريخياً من عناصر تكوين هذه الحضارة ، وهو أيضاً تنكّر لقيمة « العطاء » الذى يرفع جباه أجدادنا عالياً) ص ٢٠ .

(لقد تأثر تراثنا وأثر ، وأخذ وأعطي ، والضرورة العلمية تقتضى رصد هذه

المجموعة من المؤثرات والتأثيرات المتبادلة ، حتى نحدد البعد الإنساني العام لتراثنا (ص ٢١ .

٣ - (الفرق بين الذين « يتكلمون » عن إحياء التراث وبين الذين يحوونه بالفعل ، الأولون يقتلون أعظم ما فيه ، بتكفيره في كهنوت التفاسير والورق المصقول ، والآخرون يهبون أروع ما فيه شرارة الحياة الجديدة المعاصرة ، الأولون في واقع الأمر يشكلون جبهة الثورة المضادة للتراث ، والآخرون يشكلون طليعة الثورة داخل التراث) ص ٣٣ .

٤ - (إن أقصى ما نستطيعه في هذا الصدد هو الاستئثار بأدوات البحث العلمي الحديثة في رؤية التراث رؤية جديدة ، وهو ما ندعوه بإعادة التقييم ، أما فرض المصطلح الجديد على التراث القديم ، بهدف سياسى نبيل ، هو إقناع الآخرين بأن الاشتراكية مثلا ليست غريبة على تراثنا - فهو يحمل من المخافة لروح العلم ما يعتمد بالمحاولة في المدى الطويل عن الهدف النبيل ، بل قد يجيء برد فعل عكسى ، نتيجة ما نتوهم أنه « أرض مشتركة » فوق هذه الأرض يكسب الرجعيون بغير شك ، لأنها في الأصل أرضهم ، وليست أرضنا) ص ٣٤ .

* * *

بدأ الكاتب بتوسيع دائرة التراث ، ليتخطى ، أو ليغضى على التراث الإسلامى بالتراث الإنسانى ، وعلى التاريخ في مرحلة مازلنا نحيا امتداداتها ، بالتاريخ العام الذى نستشرف إليه من بعيد .

والتقى بالدكتور تيزبى في أن (الحضارة في جوهرها إنسانية ، لها دورات جدلية ، تعتمد الأخذ والعطاء) ، لتصبح الثقافة الاشتراكية - وليست الحضارة الغربية - نابعة من تراثنا ، لا دخيلة ، ولا مستوردة ، ويمكن أن نقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، لكن لا ينبغي أن نقول هذا القول ، حتى لا (يجيء برد فعل

عكسى) على (أرض مشتركة) ، يكسب فوقها (الرجعيون دون شك ، لأنها في الأصل أرضهم ، وليست أرضنا) .

وافرد غالى شكرى بما أسماه (الوحدة التاريخية للشعب .. فما يتعذر علينا استنباطه من إحدى مراحل تراثنا قد لا يتعذر العثور عليه من مرحلة أخرى ، أى أن ما لانجده في الحضارة السومرية ، أو الفرعونية ، أو الفينيقية ، أو المسيحية ، وما لانجده في هذه المراحل الحضارية من تراثنا القومى قد نجده في الإسلام ، وهكذا) ص ٣٧ .

وهذا ما تمليه فكرة استيحاء التراث في العمل الأدبي ، وهو ما ليس موضع جدال أو مراء ، حتى من أشد الدارسين تعصباً ، أو «رجعية» .

لكن الذى هو موضع استنكار ، أن تضيق الدائرة بعد اتساعها ، ليصح (التراث الإنسانى) هو (تراث الوجه الثورى للحضارة العالمية الحديثة) ، لأننا (أحوج ما نكون إلى التراث الاشتراكي العلمى ، نظرية وتطبيقاً ، هذا التراث هو الذى سيمدنا - على صعيد الحركة - بأدوات التغيير الثورى لواقعنا المتخلف) . ص ٣٩ .

(إن ضيق الاختيار واتساعه متصل أوثق الاتصال بطبيعة الأفق الاقتصادية والاجتماعية للطبقة التى تختار ، فكلمة انحصرت مصالحتها في دائرة أنانية ضيقة لم تنسع رؤيتها واختيارها الفكرى لما هو أنفع للمجتمع ككل ، وما هو أكثر فائدة للإنسانية جمعاء) .

(وهكذا ، فالطبقات الثورية ، بطبيعة محتواها الاجتماعى ، هى الشريحة الأكثر انفتاحاً في رفضها وقبولها لما في تراثنا وتراث غيرنا من تقاليد وقيم) ص ٤١ . (وهى - حين تحاول أن تتخطى حدود أزميتها - إنما تحاول أن تتشغل المجتمع كله من الوهدة التى يتردى فيها ، وأن تنقذ الإنسانية مما يهددها في مكان ما على ظهر هذا الكوكب) ص ٤٢ .

(هكذا نستطيع أن نفهم : لماذا أكتبت أوروبا - في فجر نهضتها - على تراث اليونان والرومان ، وناضلت المسيحية في عقر دارها ، ونجحت في فتح عصر جديد ، لا للبرجوازية وحدها ، ولا لأوروبا وحدها ، ولكن للإنسانية كلها ، ولماذا أخفق أسباتيك ، فرعون مصر ٧١٢ - ٦٦٦ ق . م في دعوته : « عودوا إلى القدماء » ، بإحيائه الشعائر القديمة ، وأساليب الفن القديم ، ولم تكفد تمضى مائة سنة حتى كان الغزاة من كل جانب يكتسحون البلاد) . ص ٤٣/٤٤ .

ولا شك في أن الدعوة إلى الأخذ بالقيم الإسلامية هي (عودة إلى القدماء) ، على طريقة أسباتيك ، جاء على أثرها الغزاة من الفرنسيين والإنجليز والإسرائيليين ، وتوالت هزائمنا وانتكاساتنا .

ولو أن الدعوة كانت إلى الأخذ بالتراث اليوناني والروماني ، كما فعلت أوروبا ، أو بالتراث الفرعوني والسومري ، كما ينبغي أن نفعل . . . ولو أننا ناضلنا الإسلام (في عقر داره لتجحننا في فتح عصر جديد ، لا للبرجوازية وحدها ، ولا للعرب وحدهم ، ولكن للإنسانية كلها) ، عن طريق الاشتراكية العلمية ، والرعى المادى للتاريخ .

(إن تحرير الأرض من الاحتلال يتساوى مع تحرير الإنسان من الفقر والجهل والخوف ، ومن ثم كان التراث الذي تنجز الرجعية مهمة إحيائه ، ومحرص الاستعمار على بقائه وتدعيمه ، هو تراث التفاوت الطبقي ، ومعاداة العلم ، والاستسلام للقهر . . . إنه التراث الذي يحتاج إلى « الهدم » بمعاول الدراسة العلمية والبحث الموضوعي ، بكشف همزة الوصل بينه وبين القوى الاجتماعية المستفيدة من ركامه الأيديولوجي) ص ٤٥ .

(والتراث في حياتنا لا يبدأ بالكلام المكتوب أو المخطوط أو المحفوظ . المقروء أو المسموع ، وإنما هو يبدأ بتلك القيم والعادات والتقاليد ذات الطابع العملي ، أي هذه التي تنعكس في سلوك الأفراد والجماعات انعكاساً فعلياً ، وتجري في ممارساتهم

اليومية مجرى الأشياء الطبيعية ، لا من قبيل الشذوذ والامتناء) ص ٤٦ .
ومن هنا ، فالقيم والعادات والتقاليد الإسلامية لا تمثل - في إطار المجتمع
العربي - إلا ظاهرة الشذوذ والامتناء ، أو القشرة التي رسبها القرون الأخيرة ،
التي لا تكاد تتجاوز خمسة عشر قرناً . . لكن أصالة الدماء التي تجري في دماغنا ،
والانطباعات الحيرة التي انغرزت في سلوكنا ، إنما هي من فعل سبعين قرناً من
الزمان .

(ولقد ثبت - بالدليل القاطع من التجربة التاريخية - أنه ليس صحيحاً أن
تغير القيم تلقائياً غداة تغير الاقتصاد والسياسة) ص ٥٥ .
لهذا ، لا ينبغي أن تشكل (الظاهرة الإسلامية) - بما صاحبها من حضارة
زاهرة ، امتدت في خلايا المجتمع ثقافياً واقتصادياً وسياسياً - أى خطر على الكيان
العربي الذي واكب التاريخ الإنساني ، منذ فجر الزمان ، بحضارات شامخة شموح
الأهرام ، خصيبة خصوبة حدائق بابل ، نبيلة نبالة عصر الشهداء .
إن دراسة جادة للأمثال العامة تحدد مسار المجتمع العربي ، على وفق تقاليد
ما قبل (الظاهرة الإسلامية) .

ولا ريب في أن المثل يعبر عن الوعي العميق الذي أصلته التجارب والتفاعلات
الاجتماعية والسياسية والاقتصادية خلال رحلة الإنسان الذي عاش على هذه
الأرض منذ نشأة الحياة .

وبهذا تصبح المرحلة الإسلامية على هامش حياة الإنسان على هذه الأرض
العربية ، ويصبح الوقوف عندها لوثناً من التعصب والعنصرية والجمود .
(ولولا أن المواهب الفنية الرئيسية في الأدب العربي الحديث تنمى بصورة
أو بأخرى إلى اليسار ، بمعانيه المختلفة ، لتوارت إلى الأبد من عقولنا ووجداناتنا
أروع ما في تراثنا من قيم وتقاليد) ص ٦٦ .

لأن دورهم انصرف إلى الكشف عن (القيم والتقاليد الثورية المطمورة في تراثنا) .

فقد خيمت - منذ المد الإسلامي - على تراثنا الأصيل خيوط عنكبوتية لزجة ، شلت ، أو كادت ، حركتنا الحرة ، وزيفت ، أو كادت ، معالم حياتنا وتقاليدنا ، وطفعت مئات الأقسام الرجعية بركام من التهميمات الميتافيزيقية على حركة الفكر العرفي ، حتى كادت تقتل فيه الحياة . . ولولا هذه العناصر الثورية التي كانت تنبعث من حين لآخر ممزقة هذا الركام ، ولولا ما تشكله (جبهة الصمود والتصدي) في وجه هذا (الغناء) الذي يتدفق تدفق السيل - لما آذن فجرنا بهذه الإشراقة التي تألق من هنا ومن هناك ، ولا تلبث أن تمزق كل أنسجة الظلم والظلام ، معلنة الانتصار العظيم للإنسان الاشتراكي الذي يملك مقومات الحياة الحرة الكريمة .

* * *

إنه إن تكن (القوى الرجعية) في الوطن العرفي تتجه إلى (بعث) المثل الأعلى ، للقيم والسلوك من أركان وأنقاض تلك الفترة الطويلة المظلمة) - فإنه (يتعين على القوى الثورية أن تفعل العكس ، وتبحث عن رموز ثورتها في الفترات المضنية ، بالإضافة إلى دراسة الظلام ، وتحليل أسبابه ، وبلورة نتائجه السلبية على الماضي والحاضر والمستقبل) ص ٨٥/٨٦ .

(إن افتتاح المعتزلة على العالم من حولهم ، لم يكن مجرد سباحة فكرية بين الغرائب ، وإنما كان عنصراً منهجياً في التفكير ، هو أن الموروث من السلف الصالح فقط وحده لا يكفي لحياة الإنسان ، وأن التراث البشري وحدة واحدة بالتشابه والتناقض معاً ، لذلك فهم ، بدلا من التعريف الشائع لعلم الكلام بأنه « علم يتضمن الحجاج عن القواعد الإيمانية بالأدلة العقلية » ، قلبوا التعريف رأساً على عقب ، وجعلوا السنة والعقائد في خدمة العقل ، ومن ثم ظهر في بداياتهم الأولى

نزعة الاعتماد على العقل ، وإقامة سلطان له ، إلى جانب النصوص المنزلة ، وكان لموقفهم التحررى من إرادة الإنسان ، وتقديس عقله ، ما دفعهم إلى أن يتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرا وشرها ، ولكنهم جعلوا الحرية الإنسانية شرطاً لتحمل المسؤولية بالثواب والعقاب ، أى أنهم رفضوا فكرة القضاء والقدر ، « إذ كيف يجبر الله عباده على فعل قَدَرَهُ هو عليهم ، ثم يحاسبهم ، لأنهم فعلوه » ، وقد تطور الأخذ بالعقل عند المعتزلة ثلاث مرات ، الأولى أنه كان أداتهم لفهم الدين ، والثانية أنه أصبح نداً للشرع مساوياً له ، وفى الثالثة تغلب العقل عندهم ، وحاولوا تطويع الوحي فى خدمته .

وهكذا ، لم تعد هناك فى عرفهم « مسلمة يقينية » ، بل أضحت كل شىء قابلاً للنظر والنقد ، وحل الاستقراء والاستدلال مكان الإيمان .

ولم يكن المعتزلة مجرد تيار فكرى ، بل كان لهم تنظيمهم السياسى الذى تبلور فى أواخر القرن الأول الهجرى .

وهم بدعوتهم لحرية الإنسان برونه صاحب الحق فى إقامة وإسقاط السلطة السياسية (ص ٨٧/٨٨ .

• • •

سبق أن تناولنا الرد على هذه الأفكار المقرآه على المعتزلة فى كتابات (طيب تيزينى) ، وتبيننا أن (تيزينى) يعتمد الى تشويه النصوص ، حتى تستخدم أهدافه ، لكن كاتبنا هذا لا يكتفى بتديد ما سبق به (تيزينى) . بل يغالى فيزعم أنه رجع فيما قدم إلى كتاب الملل والنحل (ج ١ ص ٥٨ - ١١٣) ، ومع أنه يذكر هذا الكتاب فى ثبت مراجعة ، ولم يشر فى الهامش إلى الطبعة التى أخذ عنها ، فإن هذه الصفحات تتناول فرق الاعتزال ، وتعرض آراء متنوعة ، بعضها يميل إلى الاعتدال ، وبعضها يميل إلى المغالاة ، لكنها جميعاً لا تكاد تبعد عن الخط

الإسلامى العام ، كما سبق بيانه عند عرض كتاب (مشروع رؤية جديدة للفكر العربى فى العصر الوسيط) .

ومن المغالاة فى التزييف ما يردده عن (عارف تامر) من أن القرامطة (قد تأسست دعوتهم على قواعد اجتماعية واقتصادية . « فكان من أهدافها القضاء على استغلال الانسان للإنسان ، ونزع الأملاك العقارية الفردية الواسعة ، ومصادرة الإيرادات الطائلة الخاصة لمصلحة الدولة ، وفرض ضرائب معقولة متدرجة فى الضخامة ، والغاء قانون مبدأ الوراثة ، ومصادرة أملاك المهاجرين والعصاة ، ووضع جميع وسائل النقل والمواصلات تحت تصرف الدولة ، وزيادة المصانع الوطنية وآلات الإنتاج ، وإصلاح الأرض المجدية ، وتحسين المزرعة منها ، وفرض العمل الإجبارى على جميع الأفراد ووصل العمل الزراعى بالصناعى ، وإقامة نظام شورى قائم على مجلس خاضع للانتخاب الجماعى يحل محل الملكية الوراثية ، ونسف نظام الاستثناء بين الطبقات ، وتغيير العقيلة السائدة المرتكزة فى كل شىء على الدين وكل هذا يهدد بالفناء ») ص ٨٩ .

هذا مع أن الحقيقة لا تتجاوز الضرب على الأوتار التى تثير الجماهير المعانية والمتشوقة إلى الانتقام من نظام الحكم الذى خضع للأتراك ، وتفشت فيه عوامل الفساد المختلفة .

وعمل القرامطة وغيرهم لا يكاد يختلف فى شىء عما كان يفعل الصعاليك وقطاع الطريق .

لقد نهض بهذا (التنظيم) عناصر فارسية ممتورة وحاقدة وحاملة ، اتخذت (التشيع) رداءً ، ومع ذلك أحلت للأتباع ترك الفرائض الدينية ، كما أحلت للبيد والحمر ، واتخذت بيت المقدس قبلة وعمجاً واتخذت فى مراحلها الأولى نظام الشركة فى الأموال ، لكنها ما لبثت أن استخدمت الإغارة والنهب والسلب ، وهاجمت قوافل الحجاج ، وقتلت عشرات الألوف ، وسرقت كسوة الكعبة ، ونهبت التحف

والكنوز ، من البيت الحرام ، واقتلعت الحجر الأسود ، وذهبت به إلى هجر ، وأصبحت سرطانياً في جسم الأمة ، يتحرك ما بين البحرين والعراق والشام ، حتى قال أحد قادتهم ، أبوظاهر الجنائى :

أنا الله ، وبالله أنا يخلق الخلق ، وأفنيهم أنا

فإذا كان هذا هو النموذج الثورى فى التراث ، وكما فعل حسين قاسم عزيز من البابكية^(١) دعاء العدالة الاجتماعية - فإن مفهوم الثورة الاشتراكية يتحدد فى مجرد استغلال الكادحين والمطحونين للانتقام أبشع الانتقام من النظام الاجتماعى ، بدلا من العمل على إصلاحه .

وللأسف هذا المظهر المأساوى الشرير هو ما شد الانتباه إليه ، وكان عمل (الثوريين) على إحيائه وإشاعته .

(فالذى يحتاج حقاً إلى إحياء هو بعض المواقف النادرة فى التراث ، نأخذ منها القيمة والشكل وزاوية النظر ، أى المنهج ، دون المضمون الذى لا علاقة له بمصرنا وإنساننا) ص ٩٨ .

وهذا المنهج يتحدد فى تخريب (القيم التراثية) ، كما يتحدد فى تخريب القيم الحضارية المعاصرة ، فيما عدا ما يمس (المجتمع الاشتراكى) .

ويتمثل هذا التخريب فى الإساءة والنيل من كل ما هو عظيم .

(فنظرية الخلود الكامنة وراء التحنيط والأهرام موقف هرونى من الموت ، ورؤية غيبية للحياة) ص ٦٧ . بدلا من أن تكون رمزاً للانتصار على الموت ، وإيماناً بالإنسان القادر على التحدى بالعمل والبناء ، والرغبة فى تجديد الحياة ، حتى لا يكون كفاحنا فى الحياة الأولى مجرد نشاط لا تحكمه قيمة ، ولا تمدده عدالة ، ولا يتوجه ثواب أو عقاب .

(١) رسالة ليل الدكتوراه من جامعة موسكو سنة ١٩٦٦ - مكتبة النهضة - بغداد - لا تاريخ

(والتراث الإسلامى بقوانينه وتشريعاته يضع المرأة فى منزلة مهينة فالرجال قوامون عليها ، وحصتها فى الميراث وحضانتها للأطفال ، إلى غير ذلك من قوانين العبودية القديمة التى ورثناها ، بالرغم من كل ما حققته المرأة فى الحياة الدنيا ، من حرية اقتصادية وحمل للمسئولية) ص ٩٩ .

وللأسف : هذا الوهم العايب يتكىء على ما جاء فى (تجديد الفكر العربى) للدكتور زكى نجيب محمود (ص ٧٩ - ٨٠) ، على حين من يقرأ قراءة عابرة ما ورد فى السور القرآنية (النساء والمائدة والتحل والنور) يجد تسوية كاملة بين الرجل والمرأة أمام القانون ، وفى شئون المسئولية والجزاء فى الدنيا والآخرة ، وفى الحقوق المدنية بمختلف أنواعها .

فللمرأة - فى نظر الإسلام - شخصيتها المدنية المستقلة عن شخصية أبيها - أو من هى تحت رعايته ، وقد ذهب أبو حنيفة إلى أن للمرأة أن تزوج نفسها متى شاءت ، بشرط ألا تزوج إلا بكفه ، وليس لوليها الاعتراض إلا عند عدم الكفاءة ، وأباح للمتوفى عنها زوجها - إذا كانت بالغة عاقلة - أن تزوج بمن تشاء ، وأحاط حقوق العاصرات من البنات بسياج من الحماية والرعاية ، والمرأة المسلمة بعد زواجها تحتفظ باسمها واسم أسرتها وجميع حقوقها المدنية ، وبأهليتها فى تحمل الالتزامات ، وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية ، وما إلى ذلك ، وتحتفظ بحقوقها فى التملك تملكاً مستقلاً عن غيرها ، ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها ، قل ذلك الشيء أو أكثر ، ولا يحل له أن يتصرف فى شيء من مالها إلا إذا أذنت له بذلك ، أو وكلته فى إجراء عقد بالنيابة عنها ، ولها حق أن تلغى وكتلته وتوكل غيره متى شاءت .

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين وأعبائه فى الحياة ، وما يصلح له ، وكفالة المصلحة العامة ، ومصلحة الأسرة ، ومصلحة المرأة نفسها .

وسوى الإسلام بين الرجل والمرأة في حق التعليم والثقافة ، بل إنه ليجب عليها ذلك في الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها وحسن قيامها بوظائف الحياة . وسوى الإسلام كذلك بين الرجل والمرأة في حق العمل ، فأباح لها أن تضطلع بالوظائف والأعمال المشروعة التي تحسن أداءها ، ولا تتنافر مع طبيعتها ، ولم يعتبر هذا الحق إلا بما يحفظ للمرأة كرامتها ، ويصونها عن التبذل ، وينأى بها عن كل ما يتنافى مع الخلق الكريم .

ولها الحق في أن تباشر السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية^(١) فهل حققت المرأة الأوربية - مع ما وصلت إليه الحضارة الأوربية اليوم ما تحقق للمرأة المسلمة ؟

أما عن المرأة في البلدان الاشتراكية ، فإطول الحديث عن هوانها وقسوة معاناتها . ولا حاجة إلى الحديث عن المرأة قبل التشريع الإسلامي ، لأنه لا مجال للمقارنة بين ما كانت عليه وما صارت إليه .

أما عن (الحرية الفكرية) في الإسلام ، و (الحرية الاجتماعية) ، وأما عن (روح الإبداع والخلق والمبادرة) التي توكأ في غمزها على الدكتور زكي نجيب محمود ، فإن من الخير للسيد (الباحث) أن يرجع إلى كتاب (مشروع رؤية جديدة للفكر العرفي في العصر الراسخ) ، لصاحبه الدكتور طيب تيزيني ، الذي وصفه بأن (الموضوعية القرينة من روح العلم الطبيعي هي أداته الرئيسية الأولى في الفرز والتبويب) ، وأنه (تابع العلاقة بين الفكر والواقع متابعة ميكروسكوبية مذهلة) ، وأن (هذا الشكل العلمي الدقيق هو الذي أثمر النتائج العلمية الدقيقة التي أتت بدورها برهاناً ساطعاً على صحة القوانين الأساسية للفكر المادى التاريخي الجسلى) .

(١) انظر للدكتور على عبد الواحد وإني كتابه : المساواة في الإسلام ، والمرأة في الإسلام ، ولأستاذ العقاد كتابه : المرأة في القرآن ، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، وهي من الكتب الشائعة التداول .

ص ١١١/١١٠ . ولعله يتواضع ويقرأ عرضنا لهذا الكتاب ، لعله يتعرف إلى الحقيقة ، دون أن يجهد نفسه في قراءة ما كتب الفقهاء وعلماء الكلام والفلاسفة والأدباء والعلماء في دولة الإسلام .

ولعله (من الطريف أن كاتباً أمريكياً يدعى « كامب ولفريد سميث » أصدر كتاباً بعنوان : « الإسلام في العصر الحديث » Islam in Modern History ، عن جامعة مونتريال بكندا ، ومعرفة مؤسسة روكفلر ، يرى هو الآخر أنه لا خلاص للبشرية إلا باعتراف الإسلام) . هامش ص ١٦٥ .

ولم يكن سميث وحده في هذه الدعوة ، فما أكثر الذين دخلوا في الإسلام ، من أبناء الحضارة المعاصرة ، ولعل السيد الباحث يكون قد سمع بما كتبه المستشرقون عن (التراث الإسلامي) و(دائرة المعارف الإسلامية) ، إذا لم يكن قد سمع عن كتابات عبد الكريم جرمانوس المجرى ، والشيخ عبد الواحد رينيه جينو الفرنسي ، والدكتور موريس بوكاي الطبيب الفرنسي المشهور ، وصاحب كتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم) ، وكثير كثير ممن دخلوا في الإسلام ، أو ممن آمنوا بهد الفكر العظيم أمثال ماسينون ونولدكه وبروكلمان ومرجليوث ومكدونالد وكراشكوفسكى وآسين بلاثومس ، فضلاً عما كتبه جوته وكارليل .

أما أن يتكئ على فكر الدكتور زكى نجيب محمود الذى يصفه بما وصفه به طيب تيزينى من أنه (يفتقد الاتساق الداخلى ، فين عناصره يضم بعضاً من أفكار عصر التنوير ، وبعضاً من أركان الوضعية المنطقية والبراجماتية والتجريبية ، والمادية الديناميكية ، في وقت واحد) حتى (تناقضت كثير من النتائج مع المقدمات) ص ١٠٤ - فهذا هو العبث بعينه ، وكان أولى به أن يرجع - في مجال الفكر الإسلامى - إلى المفكرين الإسلاميين ، أو إلى مصادر هذا الفكر ، حتى يكون على بينة من الأمر ، وهذا من بديهيات (المهجية العلمية) . . . ولعله إذا قرأ

شيئاً من هذا كله يقول بقول الدكتور عبد العزيز كامل : (لا أستطيع أن أفرق ما بين فكر إسلامي وفكر إنساني) ص ١٧١ .

لكن الكاتب الفاضل اعتمد على ما جاء عَرَضاً في قلم الدكتور حسين فوزي أو توفيق الحكيم أو أحمد بهاء الدين ، وغيرهم من غير المعينين بالفكر الإسلامي ، أو الدارسين له .. وهذا هو التجاوز ..

• • •

والأستاذ الباحث يردد أفكار الدكتور تيزيني في كثير مما عرض له ، ويهيج نهجه في تناول الأفكار أو الأيديولوجيات السائدة ، في محاولة تقديمها بالطريقة التي تحدم هدفه .

فهو يزعم (أن الذي يرى في القرآن خلاصاً فردياً لذاته محاصر كل لحظة في حياته اليومية بما يחדش حياة صوفيته هذه ، بما يتناقض معها ، لأنه لا يعيش في الفضاء المجرد ، وإنما هو يجيا في إطار مجموعة من العلاقات الاجتماعية التي لا تنفق في الكثير أو في القليل مع إيمانه ورجبته في السلوك وفق هذا الإيمان) ص ١٩٢ . ويتجاهل دور الأنبياء والرسل ، وكأنه يريد أن يخضع الدين لتقائص المجتمع ومبادئه وآفاته ، أو كأنه يريد مجتمعاً لا يخضع لقوانين تحق الحق وتبطل الباطل ، وإنما تسيره الغرائز والعواطف الدنيا ، أو كأنه يرى أن يخضع المرء لسلبات المجتمع ، لأن يقاومها ، فيأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر .

ويزعم (أن الذين طبقوا أو يطبقون أو سيطبقون القرآن هم « بشر » ، بكل معنى الكلمة ، فلما أن نفترض أنهم معصومون من الخطأ ، بحيث إن العنصر الإلهي فيهم هو الذي سيتعامل مع النص الإلهي ، وإما أنهم معرضون للخطأ ، وفي الحالة الأولى يبرز السؤال عن هو الوصي الإلهي الذي سيختار مبعوث العناية الإلهية ، وفي الحالة الثانية يبرز السؤال عن منسب إليه الخطأ إذا وقع ، وإذا تراكمت الأخطاء فأين المقدم من الضلال ؟) .

ويعلق ساخراً متهكماً : (ربما كان الخلل هو أن « يُسَلَّم » العالم كله ، ولكن حتى يتم ذلك فإن تحديات العصر قد تكون قد أبحزت مهمتها ، وألقت بنا في مزبلة التاريخ) ص ١٩٣ .

ونسى ، أو تناسى أن العقائد الإسلامية لا تختلف في جوهرها عن العقائد التي جاء بها موسى وعيسى والأنبياء والرسل من قبلها ، وأن التشريعات الإسلامية إنما جاءت عن طريق إنسان (يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) . ويتعامل مع الخير والشر ، فينصر الحق ويزهق الباطل ، ثم إن التشريعات الإسلامية ليست من أفق سماوى فقط ، فقد اشترك في صياغتها وتفصيلها وتطويرها العنصر البشرى . فحديث الرسول وعمله ، وما أجمع عليه الصحابة ، بل ما يجمع عليه العلماء في أى زمان ، إنما هو من التشريع ، ثم إن باب الاجتهاد مفتوح أمام القادرين من العلماء ليطوروا الفكر الإسلامى بما يتلاءم والتطورات الاجتماعية المستمرة ، والتمسك بالتعاليم الإسلامية هو الذى انتقل بحفنة من أبناء الصحراء إلى قمة المسئولية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في أزهى العصور الحضارية . ولا يعيب عن فكر السيد الباحث أن جميع الحضارات القديمة ، أصبحت في ذمة التاريخ . ما عدا الحضارة الإسلامية التي ظلت على مدى ألف وأربعمائة عام تعمل عملها وتجدد شبابها . . . وليس خافياً ما يجري اليوم على الساحة العالمية من محاولات الانبعاث الإسلامى ، في تحرك الفكر ، وتحرك الجماهير العريضة من الشباب المثقف الواعى ، وفي تحرك الدول والحكومات ، وهذا هو الذى يربط ما بين السيد الباحث وسادته وبين (مزبلة التاريخ) .

ويعيب على من (يرى في القرآن وبقية عناصر التراث الإسلامى « منهجاً » في التفكير أقرب إلى ما نسميه الآن « دليل عمل ») !! ص ١٩٤ .

فإذا كان أصحاب هذا (المنهج) يرون صلاحيته للحياة ، وقدرته على تحقيق الخير للبشرية ، فإذا يحول دون الأخذ به ، وتطبيق تعاليمه ؟

كيف نصادر من يدعو إلى الحق ، وإنهم ليرون أنفسهم على حق ، مستندين إلى تجربة طويلة ناجحة ، على حين نصفق لباطل هذا المجتمع الحديث الذي يقر قيام العصابات المسلحة بالاستيلاء على نظم الحكم ، ويعترف بشرعيتها ، ما دامت قادرة على فرض سيطرتها المستمدة من السلاح ؟

ألا تقوم النظم الاشتراكية بقتل الملايين ، وتهجير وتشريد شعوب عن أراضيها ، لمجرد أنها ترفض الإلحاد وتخريب الذمم والقمم ؟ وفي سبيل أى غاية يحدث هذا ؟ أليس من أجل تسييد وتسلط ، لا دكتاتورية الطبقة ، بل فئة حاكمة ناقمة من هذه الطبقة ؟

فهل يلعن النور وينصر الظلام إلا الصم البكم العمى الذين لا يعقلون !؟

* * *

ثم . . . يدعو بدعوة سادته - متكئاً على كاتب مغربي يدعى مصطفى النهري إلى الفصل بين الدين والدولة ، فيقول : (إذا كانت السلطة الدينية ترغب رغبة حقيقية في حماية الدين الحقيقي فما عليها إلا أن تفك ارتباطها بالسلطة ، وتخطبها من موقع الشعب البسيط المؤمن القادر على تسييج أى إيمان ، يرفع صوته هو ، ويجسد مطالبه هو) ص ٢٠٣ .

فإذا رفع (الشعب البسيط المؤمن القادر على تسييج أى إيمان) صوته في وجه السلطة ، (وجسد مطالبه) ولم تستجب السلطة ، فإذا يحدث يا أيها اللبيب !؟

* * *

ويعضى في عرض أفكار شيعته التي لا تكاد تضيف شيئاً إلى ما سبق تناوله ، مردداً آراء لا يملكها بصورة من يملكها ، لمجرد التذليل على أن (المفهوم الماركسي للتراث والعصر هو المرشح الوحيد للنضال ، لا لإنجاز المهام الاشتراكية فحسب ، بل لإنجاز ما لم تستطع البورجوازية نفسها تحقيقه ، كقيام الدولة العلمانية) ص ٢١٠ .

فن خلال عرض أفكار عدد من كتّاب اليسار ، والتعليق عليها ، كان هذا الحوار . . .

وهو - في جملته - لا يقوم على رفض كل ما يقدم اليسار ، بل يدعو إلى الأخذ بالمرونة ، وسعة الأفق ، والحرص على المكتسبات التي تتجلى في هذا الفكر ، وإلى أن نحسن اللقاء به ، والانتصاف منه . . .

. لا يطالب بأكثر من الحد من المغالاة في (التبعية) ، بحيث تضع معالم الشخصية العربية ، ولا تكاد تعدو أن تكون ظلاً باهتاً يتحرك بحركة السادة القابعين في موسكو أو بكين ، أو بوقاً يحسم كل فحيح الآخرين .

ولا مجال لإنكار أن اليساريين العرب يمثلون نجبة ذكية ، ذات قدرة واضحة على اكتساب المعرفة ، لكنها - مع واقع السخط والنقمة لما أصاب العالم العربي من الاستبداد والجشع الاستعماري ، أولما أصاب الأقاليم العربية من تحكّم فردى مهين ، واستنزاف للقوى خلف تطلعات عنترية ، أولما أصاب أفراد (النخبة) من هوان الحياة ، وقسوة التباين الطبقي ، والتوزيع غير العادل للثروات - مالت هذه (النخبة) كل الميل نحو التطرف الحاقد ، الذي يسهل عليه أن يحرق كل نبتة خضراء ، في سبيل أن ينال من الاستعمار الذي يملك المقدرات ، أو من المستبد الذي يفرض الظلم والظلام ، أو من الإقطاعي الذي تقتله التخمّة ، في حين يقتل الآخرين الجوع .

لهذا قد يجدون قدرًا من التعاطف ، وقد يرغب القارئ في تشجيعهم ،

والنصفيق لهم ، لكن مع إحساس بالغ بالرتاء ، ومزيد من الأسمى والأسف ، لأن ضياع هذه المواهب القادرة على العطاء الحصيب ، وتبديد هذه الطاقات على مذابح الشيطان ، إنما هو بعض المؤامرة الاستعمارية التي تعمل على تخريب العقول والقلوب والدم ، حتى تصل إلى القرية مشخنة الجراح سهلة التناول .

إن من هوان أمرنا أن صرنا نخرَّب بيوتنا بأيدينا ، وما أيسر الهدم ، وما ألد الانتقام والتشفى ونحن بمواريث القبيلة ، تحكنا عادة النار ، وأن تنفاني على طريقة حرب البسوس وداحس والغبراء . . لهذا ، نال من أنفسنا أكثر مما ينال منا أعداؤنا .

على خريطة اليوم كل العرب يتأخرون بأقدام موحلة ، في مستقعات لبنان ، وفي الصحراء المغربية ، وعلى الحدود بين إيران والعراق ، فضلا عن حشود واستنزاف قوى ، على حدود سوريا والأردن ، والعراق وسوريا ، واليمن الشمالي والجنوبي ، وبين جنوب اليمن وعمان ، وبين مصر وليبيا ، وبين ليبيا والسودان ، وبين ليبيا وتونس ، بالإضافة إلى جنود عرب يحاربون ضد إرتريا والصومال !!
فاذا يطلب الاستعمار الأحمر أو الأزرق أكثر من هذا ؟!

إن العدو التقليدي ، إسرائيل ، لم تصبه من سهام العربية ، ولم تجتمع من حوله قبضة العرب ، ولم تستخدم القوم ضده ، بهذا القدر الذي يدور على سعة الساحة العربية ، المحترقة بأيد عربية .

لهذا ، أناشد اليساريين ، وغير اليساريين ، من أولئك الذين يندفعون إلى الهدم دون تبصر ، ودون تفكير في مدى هذه السهام المسمومة .

أناشدهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يتدبروا أمر بلادهم .
إن ما يحدث في أفغانستان ليس بعيداً من الخليج ، وما يحدث في أثيوبيا ليس بعيداً من السودان ، وما يحدث في اليمن الجنوبي ليس على مرمى بعيد من الحرمين .
والمخالب الحمراء ليست بعيدة من المغرب وسوريا والعراق .

فاتقوا الله في أنفسكم ، وفي عروببتكم ، وفي دينكم ..
إنكم لا ترقصون على صفيح ساخن ، ولا تستدفئون على حرائق الجيران .
لقد شبت النار في ثيابكم ، يا أيها الواهمون !!

د . كامل سحافان

٤ إبريل ١٩٨٢ م .